التفسير العلمي

اختلف العلماء قديما وحديثا في التفسير العلمي بين مانع ومجيز

فمن المانعين:

١. الشاطبي رحمـه الله
٢. الشيخ محمود شلتوت
٣. الأستاذ محمود شاكر

ومن المثبتين:

١. الإمام الغزالي
٢. الإمام الرازي.
٣. الإمام السيوطي.
٤. الإمام محمد عبده.
٥. الشيخ محمد رشيد رضا.
٦. الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
٧. الدكتور محمد عبد الله دراز
٨. الأستاذ عبد الوهاب حمـوده .
٩. الأستاذ محمد أحمد الغمراوي.

وقد اختار الدكتور فضل حسن عباس رحمه الله ما يأتي:

أ) إن التفسير العلمي ضرورة تتطلبها هذه الفترة الزمنية التي نعيشها ، شريطة أن يتهيأ لذلك ذو الاختصاص.

ب) إن القول بأن التفسير العلمي فيه غض من قدر الصحابة رضوان الله عليهم لا يتفق مع منطق الواقع ومسلمات العقل.

جـ) إن القرآن الكريم كتاب الله ما دامت الإنسانية وإذا فلابد من أن يكون فيه الجديد دائما ، وهو الذي لا تنقضي عجائبه.

من كل ما سبق فإن التفسير العلمي إذا توفر له مناخه الصالح ، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبدا وهذه الشروط هي:

-١ موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسَّر المعنى اللغوي.

٢ -عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، أو ما له حكم المرفوع .

-٣موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق .

٤ -التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

٥- أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية ، بل لابد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة.

ويضيف الدكتور فضل رحمه الله: ونحن نرى أن الخروج عن هذه الشروط ، يعرض المفسر لخطر لا تحمد عقباه .

فمن مخالفة اللغة مثلا ، ما رأينا لبعضهم من تفسير الطير بالحجارة في قوله تعالى (وأرسل عليكم طيرا أبابيل] [الفيل : ٣] ، وتفسير " الغثاء الأحوي " بالفحم الحجري.

وأما تعرض التفسير العلمي لأخبار الغيب ، فكما رأينا لبعضهم من تفسير قوله تعالى (ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون] [السجدة : ٥] ، بأن هذا يقصد به ما بين نفختي الصور وأن المدة ألف سنة .

وأما التفسير حسب النظريات المتداعية الواهية فكما نراه عند بعضهم من تفسير " الخلق " حسب نظرية دارون في التطور .

وهذا قد قرره كثير من العلماء : علماء الدين ، وعلماء الطبيعة

نماذج من التفسير العلمي

١- قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] .

يقول المفسرون القدامى ، إنه قدم السمع على البصر ، وأفرد السمع لأفضليته ، ولأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع فإذا جاءت حقائق العلم تثبت أن حاسة السمع يمنحها الله

للطفل قبل حاسة الإبصار ، وأن السمع إنما يدرك به شيء واحد ، وهو الأصوات بينما يدرك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال ، وكان هذا لا يتعارض مع مفهوم الآية ومنطوقها ، ولا يعارض أثراً عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، فما المانع – إذن – أن يكون هذا تفسيراً علمياً للآية فيكون إعجازاً قرآنيا خالدا. .

٢- قال تعالى { يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث } [الزمر : ٦] ، والمفسرون القدامى يعدون هذه الظلمات الثلاث ظلمة البطن ، والرحم ، والمشيمة ، ويأتي علم التشريح الحديث ليثبت بما لا يقبل الريبة أن هذه الظلمات إنما هي أغشية ثلاثة ، تحيط بالطفل غشاء فوق غشاء ، وهذه الأغشية لا تظهر بالعين المجردة ، وهي : المنباري ، الخربوتي ، اللفائفي ويقول الدكتور محمد علي البار :" قال بعض المفسرين رحمهم الله ، إن الظلمات الثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، والمعنى صحيح في ذاته، فلجدار البطن ظلمة ثم يليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، ومع هذا فالآية قد حددت أن الظلمات الثلاث هي في مكان الخلق من بطون الأمهات وذلك لا يكون إلا في الرحم ذاته ، وإذا دققنا النظر في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة: غشاء السلي أو الأمنيون ، ويحيط بالجنين مباشرة من كل جوانبه وفي مائه يتحرك الجنين ، ثم يليه غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي) ، ثم يليه الغشاء الساقط وهو غشاء الرحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض ، وسمي بالساقط لأن الرحم يسقطه مع الأغشية.

٣- قال تعالى:" وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" (الذاريات، آية : ٤٧).

قبل سنوات قليلة لم يكن الناس يعرفون شيئاً عما يجري في الآماد البعيدة من السماء، فقد كانت أدوات الرصد عندهم محدودة المدى، تدرك وجود الكواكب، وتدرك وجود المجرات في السماء، وتقدر أنها تبلغ الملايين عداً، ولكنها لا تدرك أن هناك اتساعاً دائماً في الفضاء، وأن المسافات تتباعد بين بعض الأجرام السماوية وبعض، ولم يدركوا ذلك حتى اخترعوا مناظير من أنواع أخرى تخترق الأغوار البعيدة في الفضاء ومركبات فضاء تسجل حركة الأفلاك على أبعاد هائلة من الأرض وكلما اتسعت معارف الإنسان ومخترعاته وجد جديداً في كتاب الله لم يكن يفطن إليه، أو لم يكن يدرك أسراره.

٤- ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

قد وجد العلماء أننا كلما صعدنا عالياً فإن نسبة الأوكسجين تنخفض، حتى نصل إلى منطقة ينعدم فيها الأوكسجين!

إن أول شيء يحسُّ به الإنسان أثناء صعوده لأعلى ضيق في صدره وانقباض في رئتيه، حتى يصل لحدود حرجة حيث يختنق ويموت. هذه الحقيقة العلمية لم تكن معروفة أبداً زمن نزول القرآن العظيم. لم يكن أحد يعلم بوجود غاز اسمه الأوكسجين، ولم يكن أحد يعلم أن نسبة الأوكسجين تتناقص كلما ارتفعنا في طبقات الجوّ، لم يكن أحد يعلم التأثيرات الفيزيائية على صدر الإنسان ورئتيه نتيجة نقصان الأوكسجين.

إلا أن القرآن الكريم كتاب الله عز وجل وصف لنا هذه الحقيقة العلمية بدقة فائقة من خلال تشبيه ذلك الإنسان الذي أضلَّه الله بإنسان يعيش في طبقات الجوّ العليا كيف يكون حاله؟ إنه لا يستطيع التنفس أو الحركة أو الاستقرار فحالته مضطربة وحالة صدره في ضيق دائم حتى يصل للحدود الحرجة فهو أشبه بالميت. يقول عز وجل: (ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقا حرجاً كأنما يصّـعّد في السماء) [الأنعام: ١٢٥.[

لقد زود الله الإنسان بالرئتين وسخر له الهواء في الغلاف الجوي للأرض، كذلك أنزل له القرآن وفيه تعاليم السعادة في الدنيا والآخرة. فعندما يبتعد الإنسان عن تعاليم هذا الدين فكأنما ترك هذه الأرض وصعد إلى طبقات الجو العليا حيث لا هواء، وبالتالي سيضيق صدره ولن يهنأ له عيش وربما يختنق ويموت.

إذن قررت هذه الآية قانون كثافة الهواء الذي يقضي بنقصان نسبة الهواء كلما ارتفعنا في الجوّ. إنه الله تعالى الذي وصف لنا حقيقة علمية استغرق اكتشافها مئات السنوات بكلمات قليلة وبليغة: (يجعل صدره ضيّقا حرجاً كأنما يصّـعّد في السماء)، ثم انظر إلى كلمة (يصّعّد) المستخدمة في الآية والتي تناسب تغير السرعة أثناء الصعود إلى الأعلى. فنحن نعلم أن الجسم الذي يسقط من أعلى لأسفل لا يسقط بسرعة منتظمة، بل بسرعة متغيرة بسبب التسارع الذي تمارسه الجاذبية الأرضية على هذا الجسم.

كذلك عملية الصعود من أسفل لأعلى بعكس جاذبية الأرض، تتم بسرعة متغيرة وهذا يناسب كلمة (يصّعّد) بالتشديد للدلالة على صعوبة الصعود وقوة الجاذبية الأرضية وتغير سرعة الصعود باستمرار. وهذا يعني أن الآية قد تحدثت عن تسارع الجاذبية الأرضية أيضاً ، فهل جاءت كل هذه الحقائق العلمية في آية واحدة عن طريق المصادفة؟

فمن الذي أنبأ محمداً عليه الصلاة والسلام بهذا القانون الفيزيائي؟ ومن الذي أخبره بأن الذي يصعد في السماء يضيق صدره ويعاني من حرج شديد وصعوبة في التنفس؟

٥- ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]

فان مسألة البحرين تعتبر من الإعجاز العلمي، فقد قال أبو زهرة في زهرة التفاسير: هذه الآية من دلائل الإعجاز؛ لأن محمدا ـ ﷺ ـ لم ير البحار التي تمخر عبابها السفن، فذكره سبحانه وتعالى لخواصها في القرآن دليل على أنه ليس من عند محمد ـ ﷺ ـ الذي لم يرها ولم يعرفها، ودليل على أن الكلام لله تعالى خالق البحر واليابس، والأنهار والبحار، وهو بكل شيء عليم. اهـ

وقال الدكتور الزنداني في كتابه (بينات الرسول ﷺ ومعجزاته): القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة قد تضمن معلومات دقيقة عن ظواهر بحرية لم تكتشف إلا حديثا بواسطة الأجهزة المتطورة، ومن هذه المعلومات وجود حواجز مائية بين البحار، قال تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ * بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ. [الرحمن: ١٩-٢٠]. يشهد التطور التاريخي في سير علوم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار وبخاصة قبل رحلة تشالنجر عام (١٨٧٣ م) فضلا عن وقت نزول القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة الذي نزل على نبيّ أمي عاش في بيئة صحراوية ولم يركب البحر، كما أن علوم البحار لم تتقدم إلا في القرنين الأخيرين وخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين. وقبل ذلك كان البحر مجهولا مخيفا تكثر عنه الأساطير والخرافات، وكل ما يهتم به راكبوه هو السلامة والاهتداء إلى الطريق الصحيح أثناء رحلاتهم الطويلة، وما عرف الإنسان أن البحار الملحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من هذا القرن، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات، فأدركوا بعدئذ أن البحار الملحة متنوعة وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار الملحة، إلا بعد أن

أقام محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتا طويلا في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، التي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام، وما عرف الإنسان أن مائي البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائي، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق، وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.